

ظاهرة التطرف والعنف من مواجهة الآثار إلى معالجة الأسباب

التعصب المذهبي والتلذذ الطائفي والعنصري

« نشره مركز البحوث والدراسات التابع لوزارة الأوقاف والشئون
الإسلامية بدولة قطر تحت عنوان ظاهرة التطرف والعنف من مواجهة
الآثار إلى دراسة الأسباب ، الطبعة الأولى المحرم 1428 هـ كانون الثاني
(يناير) 2007 م ص 311-354 »

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد أشرف المرسلين أما بعد فقد وجه إلي مركز البحوث والدراسات بوزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بدولة قطر الدعوة للمشاركة بالرأي في عرض وحل إشكالية ملحة في عالمنا الآن ، فلبيت الدعوة واخترت لهذه الورقة المحور الرابع :

(البعد الفقهي للعنف والفقہ المطلوب)

ولما كان موضوع هذا المحور واسعا اخترت منه الكتابة في التعصب المذهبي والتحزب الطائفي والعنصري وأثر ذلك في إنكفاء العنف واخترت حولا عملية لإبعاد هذا التعصب والتخلص منه أو تخفيفه إلى حد كبير ، ولا أخفي صعوبة الكتابة في هذا الموضوع فأطرافه متناثرة وفي الوقت نفسه متشابكة : وقبل أن أبدأ الكتابة أنبه إلى أنني لا أكتب لإرضاء أحد ولا لإغضابه ، ولكن بتوجيه من إحساسي بمسئوليتي عن تبين ما أراه في هذه المسألة ، فأقول والله المستعان وعليه التكلان .

التعصب المذهبي والطائفي والعنصري

إن للتعصب بكل أنواعه دوراً كبيراً في إيجاد ظاهرة العنف والتطرف ، قال صلى الله عليه وسلم : "حبك الشيء يعمي ويصم " رواه أبو داود ، ولذلك عمل الإسلام على علاج هذه الظاهرة ، وأمر المسلم بالوقوف مع الحق أينما كان حتى يسود المجتمع المسلم الوئام والعدل والإحسان .

قد تطلب المنهج أن تكون هذه الورقة في مقدمة وأربعة مباحث.

المقدمة وفيها تعريف للتعصب .

المبحث الأول في التعصب العنصري وآثاره وموقف الإسلام منه

المبحث الثاني في التعصب الطائفي وآثاره وموقف الإسلام منه

المبحث الثالث في التعصب المذهبي وآثاره وموقف الإسلام منه

المبحث الرابع في طرح أفكار لعلاج هذا التعصب .

المقدمة

التعصب لغة ، قال ابن فارس : العين والفاء والباء أصل صحيح واحد يدل على ربط شيء بشيء مستطيلاً أو مستديراً¹ .

وفي اللسان : انعصب : اشتد ، وعصبه : طواه ، والعصابة : العمامة ، وكل ما يعصب به الرأس . والعصبة والعصابة : جماعة ما بين العشرين إلى الأربعين .

وقد تعصبوا عليهم إذا تجمعوا ، فإذا تجمعوا على فريق آخر قيل : تعصبوا ، والعصبي من يعين قومه على الظلم .

والعصبة : الأقارب من جهة الأب ؛ لأنهم يعصبونه أي يحيطون به ، والتعصب : المحاماة والمدافعة ، وتعصبنا له ومعناه : نصرناه² .

واصطلاحاً : لا يتعدى معناه اللغوي فهو يدور حول الشدة والمحاماة والنصرة ، أو هو الانحياز إلى من يحبه أو يؤمن بمبادئه أو بني جنسه ، كان على خطأ أو صواب ، ونبذ المخالف بقوة وعنف ، وتخطئته وعدم اتباعه ، ولو كان على صواب واضح . فربما انحصر هذا الميل على المؤلف ونبذ المخالف بالأقوال ، وربما امتد إلى أقصاه فتحول إلى طرد المخالف أو قتله آخر الأمر .

¹ - ابن فارس : معجم مقاييس اللغة 4 / 336 (عصب) .

² - ابن منظور : لسان العرب 4 / 2964 - 2966 مادة (عصب) .

المبحث الأول

التعصب العنصري وأثاره وموقف الإسلام منه

ترتكز علاقات الناس بعضهم ببعض على وحدة الأرض التي يعيشون عليها أو وحدة لغة يتفاهمون بها ، أو مصالح يجتمعون عليها ، أو عنصر وجنس ينحدرون منه . وتشكل هذه الرابطة في الغالب مصدر اتفاق وتناصر بين هؤلاء ، ولو أدى ذلك إلى ظلم الغير ، فالظلم على رأي هؤلاء ليس الذي يقع ممن تشترك معه في إحدى المقومات السابقة ، وإنما يسمى ظلماً إذا وقع من غيرهم .
والذي يهمننا في هذا المبحث التعصب الذي ينشأ عن الرابطة الجنسية أو العنصرية ، أو بتعبير آخر (التعصب العنصري) .

عرفت كثير من الشعوب قبل الإسلام وبعده هذا النوع من التعصب الذي ينحاز فيه الإنسان انحيازاً كاملاً إلى عنصره مظلوماً أو ظالماً ، وقد عرفه العرب في جاهليتهم ، وهذا التعصب قد يتسع حتى يجعل الإنسان ينتصر لقبيلته جميعها من قبيلة أخرى ، أو قل من عنصر آخر - ولو كان يجتمع معه نسبا على بعد - ويضيق أحيانا حتى لا يعرف الإنسان فيه إلا نفسه وأسرته .
ولعل أحسن قانون يمثل هذا النوع الأخير جواب أعرابي في الجاهلية عندما سئل : ما هو العدل في نظرك ؟ فأجاب : العدل أن أغير على جاري فأسلب منه ماله ، فقبل له : وما الظلم في نظرك ؟ فقال : الظلم أن يغير عليّ جاري فيسترد مني ماله³ .

هذا هو القانون وهذا هو المعيار الذي يوزن به العدل والظلم في جاهلية العرب ، وهو نفسه الذي توزن به هاتان القيمتان في جاهلية اليوم ، ولا أحسبني بحاجة إلى التدليل على ذلك .

هذا التعصب العنصري كان سائداً عند العرب ، حتى إنه يضطرهم إلى التحالف أفراداً وجماعات ، وترتب عليه أن ساد الظلم في المجتمع حتى إن شاعرهم يسجل ذلك تعبيراً عن الروح السائدة في المجتمع الذي يعيش فيه إذ يقول :

³ - نصر فريد واصل : التفجيرات والتهديدات التي تواجه الأمنين بحث قدم للدورة 17 للمجمع الفقهي الإسلامي التابع لرابطة العالم الإسلامي المنعقد في مكة المكرمة 1424 هـ 2003 م ص 20 .

جريء متى يظلم يعاقب بظلمه سريعا وإلا يبد بالظلم يظلم⁴

ولا نشك أن وحدة اللغة رباط مهم بين الشعوب وكذلك وحدة المولد والمنشأ والجنس ، ووحدة المصالح المشتركة ، ولعل أقواها عند التجربة العنصر والجنس ، ومع ذلك نجد هذه العوامل زائفة⁵ ، لا تصمد عند الامتحان ؛ لأن المصالح تتغلب على البقية ، والمصالح تتضارب وتتعارض ، فعند نقطة ما تجد التفكير في المصلحة الشخصية أو الأسرية أو على الأكثر القبلية أو ما يشابهها عند الذين اندثرت أو كادت تندثر أنسابهم . لهذا نجد الشعوب التي بنت سلوكها وتعاملها مع الآخرين على هذا الأساس ، أعني النظر إلى العنصر والجنس ، تنظر إلى غيرها نظرة احتقار وامتهان ؛ لأنها تشاهدهم من علو ملاحظة الفرق بينها وبين الآخرين ، فهم السادة والآخرون العبيد ، وهم الأغنياء يتصرفون في كنوز الأرض ، والآخرون فقراء وخدم ، وهم - وحدهم - لهم الحق في حياة رغدة ناعمة ، والآخرون لا يستحقون ذلك .

قلت هذا التعصب كان سائدا عند العرب كما كان سائدا عند أمم أخرى كانت موجودة في ذلك الوقت ، وهو موجود في عالمنا اليوم ، ولو أنه يغطي بأغطية - في أغلب الأحيان - لا تحجبه كثيراً .

ومن الأمثلة الواقعية اليوم على التعصب للدم والجنس والعنصر ما نراه عند اليهود الذي احتلوا فلسطين وطردوا أهلها ، فهم يدعون أنهم شعب الله المختار ، وأن غيرهم (الجويم) أي الأمميون الذين لا يجب أن تكون لهم كرامة ، وإنما يعاملون معاملة البهائم .

أما أثر هذا الاعتقاد وهذه النظرة فواضح للعيان ، فتقتيل الفلسطينيين وطردهم من أرضهم حق لليهود ؛ لأن الفلسطينيين يمثلون خطراً على اليهود ، وبما أنهم من (الجويم) فهم لا حق لهم في أرض ولا في مال ولا استقلال ، وتقتيل رجالهم ونسائهم وأطفالهم مباح لا حرج فيه .

4 - القائل زهير ابن أبي سلمى في معلقته .تنظر جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي ص 109 .

5 - عبد الكريم عثمان : معالم الثقافة الإسلامية ص 137 .

أما قتل يهودي من قبل الفلسطيني - ولو دخل عليه الأول داره بالسلاح - فهو عين الظلم .

موقف الإسلام من التعصب العنصري :

لما بعث الله خاتم الأنبياء والمرسلين - صلى الله عليه وسلم - كان العرب - كما وصفنا سابقا يتصفون بالعنصرية ، فكل قبيلة تعتقد أنها أفضل من غيرها ، بل أحيانا كل بطن منها يعتقد أنه أعلى وأسمى من غيره من البطون وعلى ذلك ساروا في حياتهم ، وفي حربهم وسلمهم وثوراتهم .

جاء الإسلام فألغى هذه النعرات ، وأوقف هذه النظرات (يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير) الحجرات / 12 .

فلا يصح - حسب الإسلام - أن يكون ما يظهر من اختلاف الشعوب والقبائل والأجناس سببا للتباغض والتناحر ، وإنما يجب أن يكون وسيلة للتعارف والتعاون .

أما الأرض فهي لله يعمرها الإنسان بالخير يورثها الله من يشاء ، فلا يجوز أن تتخذ معبوداً ، قال تعالى : (ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض) الحج / 65 . ولا يصح في الإسلام التفاخر بالنسب ، قال تعالى (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين) التوبة / 24 .

قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : (يا معشر قريش اشتروا أنفسكم من الله لا أغني عنكم من الله شيئا ، ويا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئا ، يا عباس بن عبد المطلب ما أغني عنك من الله شيئا ، يا فاطمة بنت محمد : سليني ما شئت من مالي ، لا أغني عنك من الله شيئا) متفق عليه .

وقال - عليه الصلاة والسلام - : (ليس منا من دعا إلى عصبية) رواه أبو داود ، وقد وصف - صلى الله عليه وسلم - العصبية الجاهلية منفراً منها بقوله : (دعوها فإنها منتنة) رواه مسلم . وفي صحيح البخاري : (دعوها فإنها خبيثة)

وذلك في الواقعة التي وقعت في غزوة المريسيع بين مهاجري وأنصاري ، فأدت إلى أن نادى كل رجل قومه للنصرة .

وإذا أدخلنا في التعصب العنصري التمييز بين الألوان البشرية ، وبين الذكور والإناث فإننا نجد هذا التمييز يتبع ما تحدثنا عنه آنفا من التمييز المبني على الجنس، وقد كان هذا النوع من التعصب موجودا في العرب قبل الإسلام ، وعند غيرهم كذلك ، ، بل لا يزال موجودا إلى يومنا هذا في كثير من البلدان ، فما زالت بعض المطاعم في بعض الدول حكراً على لون معين ، ممنوع منها الألوان الأخرى .

أما في الإسلام فلا وجود لهذا التمييز والتعصب اللوني ؛ إذ لا قيمة لهذه الفروق في نظرة الإسلام ، ولم يكن هذا الموقف الذي يسوى فيه جميع الألوان مجرد نظر ، بل إن ذلك طبق عمليا في الحضارة الإسلامية ، فموضع بلال بين الصحابة معروف في السيرة النبوية .

ففي المسجد يلتقي الأبيض والأسود وفي الحج تلتقي الألوان على صعيد واحد دون شعور بالاستعلاء أو الفروق ، وهذا أسامة بن زيد بن حارثة يجعله الرسول - صلى الله عليه وسلم - قائداً للجيش - وهو أسود - غير أن الجيش لا يخرج ، إذ قد حدثت وفاة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أثناء ذلك ، فأنفذه أبو بكر . وهذا وفد عمرو بن العاص إلى المقوقس ليفاوضه برئاسة عبادة بن الصامت - وكان أسود - فلما وصلوا إلى المقوقس تقدمهم عبادة ، فهابه المقوقس لسواده ، فقال لهم : نحوا عني هذا الأسود وقدموا غيره يكلمني ، فقال جميع رجال الوفد : إن هذا الأسود أفضلنا رأياً وعلماً ، وهو خيرنا والمقدم علينا ، وإنما نرجع جميعاً إلى رأيه ، وقد أمره الأمير دوننا ، ولما أنكر المقوقس ذلك ، شرحوا له أن السواد غير منكر فيهم⁶ .

وما نراه اليوم من استعمال للمرأة في شتى المجالات المهينة تحت شعار الحرية ما هو إلا ضرب من ضروب هذا التعصب وإن زينه لها بمصطلحات فارغة مدروسة عميت على كثير من النساء ، وفطن لها بعضهن . كل ذلك تناوله

⁶ - مصطفى السباعي : من روائع حضارتنا ص 64 - 65 .

الإسلام كتاباً وسنة ، فلم يجعل للون ولا للجنس فضلاً ، بل الفضل كله يرجع للثقوى واتباع أوامر الخالق الذي لم يلد ولم يولد ولم تكن له صاحبة ولا قريب . ولا بد أن نبين ما قد يخطر بالبال من الفروق بين الذكور والإناث في بعض المجالات في الإسلام فنقول : إن هذه الفروق تتبع الفروق في الخلقة الجسمية فليس هذا من قبل التمييز التعصبي ، فلا يمكن أن يكلف الرجل بالإنجاب والإرضاع مثلاً ، ولا أن تكلف المرأة بالوظائف التي خلق لها الرجل .

إثارة هذا التعصب لدى المسلمين :

يعمل أعداء الإسلام على إثارة النعرات العنصرية من قومية ووطنية وغيرها في المسلمين حتى يبعدهم عن دينهم ، وقد وضعوا لذلك استراتيجيات مدروسة كانت نتائجها تشتت المسلمين في دويلات يتحكم فيها أعداء الإسلام ، وأشربوهم هذا التعصب حتى أصبح المسلم الذي يذبح أخوه على مقربة منه لا تتحرك له شعرة ، بعد أن كان متصفاً بما وصفه به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :
(المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده) رواه مسلم .
(المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ...) متفق عليه .

المبحث الثاني

التعصب الطائفي آثاره وموقف الإسلام منه

الطائفة الجماعة من الناس يجمع بينها فكر معين أو مبادئ معينة .
والتعصب للطائفة المقصود منه الانحياز الكامل والانتصار لجماعة من الناس
فكراً وعملاً مع تخطئة غيرهم ووصفهم بالأوصاف المقيتة . وهذا يظهر في كثير
من التكتلات والتحزبات قديماً وحديثاً .

وقد علمنا القرآن الكريم الأدب في محاوراة المخالف حتى ولو كان غير مشكوك
في باطله ، وهو أرقى أنواع التنزل التي سماها علماء البيان مشاكلة ، وذلك في
مثل قوله تعالى : (وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين قل لا تسألون عن
ما أجرمنا ولا نسال عما تعلمون) سبأ / 24 .

قلت إذا كان هذا الحال مع الكافر المخالف في الدين ، فما بالك بمحاوراة المسلم
، ولو كان في نظرك مخطئاً .

أسباب التعصب :

يمكن تلخيص الأسباب التي ترسخ هذا النوع من التعصب في النقاط التالية :

1. التعصب لشيخ معين وجعله معياراً للحق :

إن الأصل أن يقاس الرجل بالحق ، فإذا انقلب الأمر وانعكس ، وأصبح الحق
يعرف بالرجال ، نتج عن ذلك تعصب ، وكلما تكرر ذلك رسخ هذا التعصب ،
حتى يصبح من الصعب أن يستبين التابع خطأ المتبوع .

وقد تعرض لذلك الإمام الماوردي ناقلاً عن الغزالي قوله : (ولقد رأيت رجلاً
يُنَاطِرُ في مجلس حفل ، وقد استدل عليه الخصم بدلالة صحيحة ، فكان جوابه
عنها أن قال : إن هذه دلالة فاسدة ، ووجه فساده أن شيخي لم يذكرها ، وما لم
يذكره الشيخ لا خير فيه) 7 .

فهذا النوع من التعصب ينشأ — في الغالب — من الغلو في تقديس الأشخاص بما
يصل أحياناً إلى اعتقاد العصمة فيهم أو في النهاية إلى عبادتهم ، كما وصف

7 - الماوردي : أدب الدنيا والدين ص 78 وينظر محمد الخزندرقه الانتلاف ص 76 .

القرآن الكريم حال بعض النصارى (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله
والمسيح ابن مريم) التوبة / 13 .

وكما حدث لبعض المتصوفة من المسلمين حيث أحاطوا بعض الصالحين أو
غيرهم بهالات من الكرامات ، ثم امتد بهم التقديس إلى أن أصبح كلامهم شرعاً .
وكتب التراجم مليئة بقصص من هذا لا يقبلها شرع ولا يستسيغها عقل ، وأكتفي
هنا بموجز لقصة ذكرها صاحب دوحة الناشر - وما أكثرها عنده - عند ترجمته
للشيخ أحمد زروق البرنسي المتوفى سنة 899 هـ جرت لزروق مع شيخه أبي
عبد الله محمد الزيتوني ، حيث دخل عليه ، وكان الشيخ أعمى فوجده يقبل
امرأتين ، إحداهما عن يمينه والأخرى عن شماله ، فولى قائلاً : إن هذا الرجل
من الزنادقة . فناداه الشيخ فرجع ولم يجد عنده أحداً ، وفسر له ما رأى بأن
إحداها الدنيا والأخرى الآخرة وأمره بالخروج من المغرب ، فاتجه إلى مصر ،
وهناك عاقبه الزيتوني بأن هدم عليه الدار التي كان يسكنها ، ولولا تدخل شيخه
الثاني في مصر - أحمد بن عقبة الحضرمي - لهلك ، ولكن هذا الشيخ رفع يده
في حالة الضربة فانكسرت ونجا زروق ، ونصحه بقوله :

سلم لسلمى و سر حيث سارت واتبع رياح القضا ودر حيث دارت
ولنستمع إلى أحد هؤلاء وهو يشجع الناس على الدخول في طريقته : (من ترك
ورداً من أوراد المشائخ لأجل الدخول في طريقتنا 8 هذه المحمدية التي شرفها الله
على جميع الطرق أمنه الله في الدنيا والآخرة ، فلا يخاف من شيء يصيبه ، لا
من الله تعالى ، ولا من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولا من شيخه أيا كان
من الأحياء والأموات ، وأما من دخل زمرتنا وتأخر عنها تحل به المصائب دنيا
وأخرى ولا يعود أبداً) 9 .

ولينظر كلامهم عن مرتبة صلاة الفاتح 10 . ومثل هذا كثير .

2. التنقص من المخالف :

8 - يعني الطريقة التجانية .
9 - عمر بن سعد الفوتي رماح حزب الرحيم (بهامش حرز الأمانى) 1 / 232 .
10 - م . ن 2 / 67 وما بعدها .

مما يسبب في التعصب لطائفة ما أن مخالفيها يتنقصونها ويسخرون منها ، فتأتي ردة الفعل شديدة ، يكون أهم آثارها التعصب لطائفتهم ومحاولة الانتصار لها بكل الطرق .

3. المناظرات العلنية :

إن حظوظ النفس تظهر في حالة المناظرة العلنية فتفسد نفوس المنصفين ، فيصعب عليهم الرجوع عن قول ظهر بطلانه ، ويصعب عليهم الرجوع إلى الحق ، فيقوى التعصب وتزداد الهوة بين الفريقين . هذا في المناظرات التي يأتيها أصحابها من كلا الفريقين قاصدين الغلبة على خصومهم وإفحامهم منذ البداية .

4. الترفع والنظر من علو للآخرين :

وهذا يحدث - غالباً - بسبب التزلف من قبل بعض الوصوليين لبعض القادة ، فيزينون لهم ما هم فيه من باطل ، ويوهمونهم أنهم اختصوا بميزات عن بقية البشر ، فينصتون إليهم مع الريبة - في بداية الأمر - ثم يصدقونهم ، وقد يقف هذا الأمر عند إقناعهم بهذه الخصوصية ، وقد يزداد إلى أن يصل بهؤلاء الممدوحين - من جراء ذلك - إلى الاعتقاد بأنهم ليسوا من جنس البشر ، بل يصل في بعض الأحيان إلى ادعاء الألوهية ، كما حدث لفرعون (وقال فرعون يأيها الملاما علمت لكم من إله غيري) القصص / 38 ، فقد خاطب نبي الله موسى - عليه السلام - بقوله (لئن اتخذت إلهها غيري لأجعلنك من المسجونين) الشعراء / 28 وخاطب قومه بقوله : (أنا ربكم الأعلى) النازعات / 24 .

الجهل وضيق الأفق :

الجهل بالشيء وعدم معرفته ، وعدم المعرفة بالآخر يسبب انغلاقاً ينتج عنه تعصب لما تعرفه ضد ما لا تعرفه . وسبب ذلك إما عدم توفر فرصة للإطلاع ، أو عدم القدرة عليه ، أو التوصية من قبل قادة بعض الجماعات أو المسؤولين ، أو المنع لاتباعهم بالقوة أو التهديد أو التخويف من الإطلاع على آراء الغير ومناقشتها ، وهذا يتضح في الدول والجماعات والقيادات الدكتاتورية التعسفية ، أو بسبب إخفاء القيادات المعلومات الحقيقية عن اتباعهم وهذا يحدث في الطرق الصوفية كثيراً .

ويحضرني في هذا المجال مثالان من حياتنا المعاصرة :

الأول أن أسرة مسلمة من الشمال الإفريقي كانت تسكن الولايات المتحدة الأمريكية ، فأدخلت هذه الأسرة ابنتها المدرسة ، ولم تمض أيام حتى جاءت البنت تحكي لأهلها كيف كانت المدرسة تصور الدين الإسلامي للطلبة بأمر خيالية ، لا وجود لها إلا في ذهن هذه المدرسة ، فماذا ينتظر - والحالة هذه - من هؤلاء الطلبة الذين كذبت عليهم مدرستهم وأخفت عنهم الحقيقة ، إما جهلاً ، وإما عمداً وهو الأظهر .

والثاني : طالب مسلم كان يدرس في كندا تزوج فتاة كندية أسلمت على يديه ومنع الوالدان هذا الزواج ، بل ومنعوا إسلام ابنتهم ، ولكن الأمر سار على عكس ما يريدون ، فقاطعوا صهرهم وابنتهم ، ثم انتقل هذا الطالب بعد الانتهاء من دراسته إلى إحدى الدول الأوروبية ، وكان يتصل بأصهاره بين الحين والآخر ، ولكنهم ماضون في المقاطعة .

وكانت الزوجة في حالة نفسية صعبة من معاملة والديها . وبعد سنوات لانت قلبوهما أعني والدي البنت فجاءوا لزيارتها ، فرحب بهم صهرهم وبقوا أياماً مع ابنتهم يلاحظون كيف كان زوجها يعاملها بالحسنى ، وقد كانوا يتوقعون عكس ذلك لكن الذي لفت انتباههم وجود سيارة فارهة لدى صهرهم ، فتعجبوا من ذلك ، وبادروا بسؤاله : وهل يسمح دينكم لأتباعه أن يمتلكوا مثل هذه السيارة ؟ فأجاب بقوله : نعم ويسمح بامتلاك أحسن منها وبأي عدد يقدر عليه المسلم .

أرأيت هؤلاء المساكين كيف كانت معلوماتهم عن الإسلام وأهله ، وأغلب الظن أنهم كانوا يعتقدون أن الزوج سيسكنها في كوخ من جريد النخل ، وسيركبها حماراً أو بغلاً .

فانظروا كيف يعمل الجهل عمله في التعصب .

وهذه النقطة تجرنا إلى تبين سبب آخر من الأهمية بمكان في إيجاد التعصب وتخطئة الآخرين ومقاطعتهم وهو :

5. غياب الحرية والأمن :

في وجود الحرية يستطيع كل أحد أن يظهر ما عنده دون خوف أو وجل ، وعند توفر الأمن يستطيع كل واحد أن يناقش فكرة الآخر بهدوء ودون تهديد ، فتتضح الأفكار لكل ذي عينين ، فإذا اتبعت أمرا وأحببته فعن خيار وقناعة ، وإذا أبغضت رأيا فعن خيار وقناعة كذلك .

6. البيئة والتنشئة الاجتماعية :

نعم إن التنشئة في بيت يتعصب للون معين أو فكرة معينة أو جماعة أو قبيلة أو جنس ، ينتقص الآخرين ، سوف لن ينتج إلا أفراداً متعصبين ، فإذا كثرت أسر مثل هذه ، فإن المجتمع كله أو معظمه سيكون كذلك .

وإذا وجدت في هذه الأسرة من يحاول التنصل من صبغتها هذه فسيخوض صراعاً مريراً مع أسرته ، بل مع نفسه كذلك .

ولقد علمت أن فتاة على درجة من الثقافة كانت ممتعة عن الزواج بسبب ما رآته من نظرة استعلائية في أسرتها ضد الآخرين ، وما خرجت من هذه الدوامة إلا بعد لأي ، فتخلصت مما تشعر به أسرتها ، وما كانت لتبوح بكل هذه التفاصيل لولا ثقنها في بعض من بثتهم أحزانها .

المبحث الثالث التعصب المذهبي

المذهب لغة اسم مكان الذهاب ، مشتق من الفعل ذهب .
وفي الاصطلاح : ما ذهب إليه إمام من الأئمة في الأحكام الاجتهادية .
وإذا أردنا أن ندخل المذاهب العقدية هنا لا بد من إضافة : في الفقه والعقائد إلى
العبارة السابقة .

ولا شك أن تلك المذاهب لم تتكون بين يوم وليلة ، وإنما مرت بمراحل حتى
تكونت أصولها ، ولذا فإن نسبتها إلى أشخاص فيه نوع من التسامح ، وإنما نسبت
إلى أشخاص بأعيانهم لأنها نضجت واكتملت عند هم 11 .
ولا بد لنا ونحن نتحدث عن التعصب المذهبي أن نقسم هذا المبحث إلى قسمين :
التعصب في المذاهب العقدية ، ونقصد بها الفرق الإسلامية ولا نتعرض - هنا
- لغير المسلمين .

التعصب في المذاهب الفقهية .

أولاً : التعصب في المذاهب العقدية وأثره على واقع المسلمين :

ولا نريد هنا أن نتعرض لنشأة المذاهب العقدية ، فذلك موضوع طويل يحتاج
إلى بحث خاص وقد كتب فيه قديماً وحديثاً 12 . وإنما يعيننا التعصب العقدي وما
جره على الأمة الإسلامية قديماً وحديثاً من فتن كقطع الليل .
ونختار في هذه الورقة تعصب الخوارج وما جرّه من أثر على المسلمين قديماً
وكيف عالجه بعض الصحابة .

لما خرج بعض الناس على علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - بعد أن
رضي بالتحكيم وكفروه ، وزين لهم بعض قاداتهم هذا الأمر ، وانقسم الناس إلى
ثلاثة فرق هم :

فرقة شايعت علياً ، وقسم من هؤلاء غلا فيه حتى نسبه إلى الألوهية 13 .

فرقة خرجت عليه وأعلنت الحرب ضده فسموا حينئذ بالخوارج 14 .

11 - عمر الجبدي : محاضرات في تاريخ المذهب المالكي ص 7 .

12 - ينظر أبو الحسن الأشعري : مقالات الإسلاميين ص 39 - 64 وأبو زهرة : تاريخ المذاهب الإسلامية ص 96 وما بعدها .

13 - ينظر فرق الشيعة الإمام الرازي في : اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص 52 - 63 .

14 - ينظر فرق الخوارج الإمام الرازي في : اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص 46 - 51 .

فرقة لم تسلك ما سلكه الفريقان .

سبب هذا الانقسام التعصب وكان التعصب - بدوره - سببا في ضعف الأمة وكثرة الفتن فبدل أن تنتج الأمة - بجسم صحيح - إلى نشر الدعوة والدفاع عنها ، أصبحت تعالج أمراضها ، وتضمد جراحها .

ونلاحظ أن الناس في كل من الفرقتين الأولى والثانية كانوا قسمين : قسم تمكن منه التعصب حتى أعمى قلبه ، فلا يفتح أذنيه لخطاب ، ولا يفكر بعقله المستقل ، فهذا استمر في غلوائه ، بل كل يوم يزداد تعصبه ، خصوصا إذا حاول أحد أن يبين له الحق .

وقسم لم يتمكن منه التعصب ذلك التمكن فرجع إلى الحق بعد أن تبين له ، وقد نقل لنا الإمام الذهبي في تاريخه مناظرة ابن عباس لهم سنة 38 هـ نذكرها لفائدتها :

" لما اجتمعت الخوارج في دارها ، وهم ستة آلاف أو نحوها ، قال ابن عباس لعلي : يا أمير المؤمنين أبرد بالصلاة لعلي ألقى هؤلاء . قال : فإني أخاف عليك . قال ابن عباس : كلا .

فلبس ابن عباس حلتين من أحسن الحلل . وكان جهيراً جميلاً .

قال ابن عباس : فأتيت القوم . فلما رأوني قالوا : مرحبا يا ابن عباس . وما هذه الحلة ؟ قلت : وما تتكرون من ذلك ؟ لقد رأيت على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حلة من أحسن الحلل . قال : ثم تلوت عليهم : (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده) الأعراف / 30 ، قالوا : فما جاء بك ؟

قلت : جئتم من عند أمير المؤمنين ، ومن عند أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولا أرى فيكم أحدا منهم . ولأبلغنكم ما قالوا ، ولأبلغنهم ما تقولون .

فما تنقمون من ابن عم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وصهره ؟

فأقبل بعضهم على بعض ، فقالوا : لا تكلموه فإن الله يقول : (بل هم قوم

خصمون) الزخرف / 58 وقال بعضهم : ما يمنعنا كلامهم ، ما يمنعنا من

كلامه . ابن عم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويدعوننا إلى كتاب الله .

قال ابن عباس : فقالوا : ننقم عليه ثلاث خلال :

الأولى : حكم الرجال ، والحكم لله .

الثانية : قاتل - (يوم الجمل) - فلم يسب ولم يغنم ، فإن كان قد حل قتالهم فقد حل سبيهم ، وإلا فلا .

الثالثة : أنه محا نفسه من (أمير المؤمنين) فإن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير المشركين .

قلت : هل غير هذا ؟

قالوا : حسينا هذا .

قلت : إن خرجت لكم من كتاب الله وسنة رسول الله أراجعون أنتم ؟ قالوا : وما يمنعنا .

قلت : أما تحكيم الرجال في أمر الله ، فإنني سمعت الله يقول في كتابه : (يحكم به نوا عدل منكم) المائدة / 97 ، وذلك في ثمن صيد أرنب أو نحوه قيمته ربع درهم ، وحكم في الخصام بين المرأة وزجها فقال : (وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها) النساء / 35 .

أخرجت من هذه ؟ قالوا : نعم .

وأما الثانية فإن في الذين قاتلهم علي أمكم (عائشة) ؛ لأن الله يقول (وأزواجه أمهاتهم) الأحزاب / 6 ، فإن زعمتم أنها ليست بأمكم فقد كفرتم . وإن زعمتم أنها أمكم فلا يحل سباؤها . فأنتم بين ضاللتين .

أخرجت من هذه ؟ قالوا : نعم .

وأما الثالثة : أما تعلمون أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوم الحديبية جرى الكتاب بينه وبين سهيل بن عمرو ؟

فقال الرسول : يا علي اكتب : هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله - فقالوا . لو علمنا أنك رسول الله ما قاتلناك ، ولكن اكتب اسمك واسمك أبيك فقال : اللهم إنك تعلم أنني رسولك ثم أخذ الصحيفة فمحاها بيده ، ثم قال : يا علي اكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله . فوالله ما أخرجه ذلك من النبوة .

أخرجت من هذه ؟ قالوا : نعم . فرجع تلتهم¹⁵ .

أما الذين تمكن منهم التعصب فأعماهم عن الحق فيكفي أن تنقل ما ذكره شيخ المؤرخين الإمام الطبري مما يدل على انقلاب الحقائق في أدمغتهم .

قال الطبري عن حميد بن هلال : " إن الخارجة التي أقبلت من البصرة جاءت حتى دنت من إخوانها بالنهر ، فخرجت عصابة منهم ، فإذا هم برجل يسوق بامرأة على حمار ، ، فعبروا إليه ، فدعوه فتهددوه وأفزعوه ، وقالوا له : من أنت ؟ قال : أنا عبد الله بن خباب صاحب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، ثم أهوى إلى ثوبه يتناوله من الأرض - وكان سقط عليه لما أفزعوه - فقالوا له : أفزعناك ؟ قال : نعم ، قالوا له لا روع عليك ! فحدثنا بحديث عن أبيك ، بحديث سمعه من النبي - صلى الله عليه وسلم - ، لعل الله ينفعنا به ! قال : حدثني أبي ، عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، " أن فتنة تكون ، يموت فيها قلب الرجل كما يموت فيها بدنه ، يمسي بها مؤمناً ويصبح فيها كافراً ، ويصبح فيها كافراً ويمسي فيها مؤمناً " فقالوا : لهذا الحديث سألتناك ، فما تقول في أبي بكر وعمر ؟ فأنتى عليهما خيراً ، قالوا : ما تقول في عثمان في أول خلافته وفي آخرها ؟ قال : إنه محق في أولها وفي آخرها ؛ قالوا : فما تقول في علي قبل التحكيم وبعده ؟ قال : إنه أعلم بالله منكم ، وأشد توكياً على دينه ، وأنفذ بصيرة . فقالوا : إنك تتبع الهوى ، وتوالي الرجال على أسمائها لا على أفعالها ، والله لنقتلنك قتلة ما قتلناها أحدا ، فأخذوه فكتفوه ثم أقبلوا به وبامرأته وهي حبلى متم حتى نزلوا تحت نخل موافر فسقطت منه رطبة ، فأخذها أحدهم فقفذ بها في فمه ، فقال أحدهم ، بغير حلها ، وبغير ثمن ! فلفظها وألقاها من فمه ، ثم أخذ سيفه فأخذ بيمينه ، فمر به خنزير لأهل الذمة فضربه بسيفه ، فقالوا هذا فساد في الأرض ، فأنتى صاحب الخنزير فأرضاه من خنزيره ، فلما رأى ذلك منهم ابن خباب قال : لئن كنتم صادقين فيما أرى فما علي منكم بأس ، إني لمسلم ؛ ما أحدثت في الإسلام حدثاً ولقد أمنتوني ، قلتم : لا روع عليك ! فجاءوا به فأضجعوه فذبجوه وسال دمه في الماء ، وأقبلوا إلى المرأة ، فقالت : إنما أنا امرأة ، ألا تتقون الله ! فبقروا بطنها " .¹⁶

وأما أثر هذا التعصب على حياة المسلمين اليوم فيجسده ما يقع من حوادث قاتلة فظيعة بين بعض الفرق الإسلامية في أفغانستان وباكستان ، وهو في العراق أوضح ، حيث يجر التعصب بعضهم إلى التعاون مع جيش الاحتلال الذي جاء ليدمر العباد ويفسد البلاد - ضد إخوانهم المسلمين ، وهل هذا إلا تكرار لما فعله الخوارج في الحوادث التي تحدثنا عنها آنفاً ، والتي تركنا بعضها خشية الإطالة . ويمثله أيضاً ما يلهج به بعض المتعصبين من تجريح لعلماء الأمة لا يستثني منهم إلا قليلاً ، وحتى الذين استثناهم لحقهم الدم بطريقة أخرى .

أقول ابتلي العالم الإسلامي في العقود الأخيرة بشرذمة من المجرحين أو إن شئت قلت علماء الجرح والتجريح ، ولا تظن أني أخطأت فكتبت التجريح بدل التعديل ، فهؤلاء لا توجد في معاجمهم كلمة (التعديل) ، يخطئون الناس جميعاً خصوصاً الدعاة منهم ، وكأن المسألة مدروسة ومخطط لها . وتبعهم بعض الغوغائيين ممن لا علم عندهم ، فأصبحوا يجوبون البلاد يصنفون الناس ، يمارسون عليهم أنواعاً من الإرهاب الفكري ، يفوق في أغلب الأحيان - الإرهاب السياسي والعسكري . لا يأخذون الفقه إلا من أشخاص معدودين لا يتعدى عددهم أصابع اليد الواحدة ، بل لا يصلونها ، وما عداهم فهو مدخول في عقيدته وفي فقهه ، لا يسمع إليه ، ولا يؤخذ منه . ميزانهم في الرجال ما يخبرهم به هؤلاء عن طريق الهاتف .

سؤالهم : ما قولكم في فلان ؟

الجواب : ساقط .

والباقى معروف . جلبوا على الأمة فنتاً مظلمة كقطع الليل ، استغلهم بعض الحكام لحاجة ، ولأمر ما جذع قصير أنفه .

جهاد المسلمين الأعداء - في نظرتهم - مغلوط ، والتصديق على فقراء المسلمين لا يمثل قربة ؛ لأن هؤلاء المسلمين عقيدتهم مدخولة .

أما الظلمة فلا يتعرض لهم ، وأما الزائغون من الصوفية فلا يناقش أمرهم . وبالجملة فإن أمرهم مكشوف للجميع ، وتأثيرهم على واقع المسلمين معروف .

ثانياً : التعصب في المذاهب الفقهية وأثره في تفرق المسلمين :

لا أريد أن أتعرض لنشأة المذاهب الفقهية فهذا ليس موضوعنا ، ولكن لابد من مقدمة موجزة ندلف منها إلى ما نحن بصدده فنقول :

في حياة الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - تحدثت الحوادث فيستفتى فيها فيجيب معتمداً - عليه الصلاة والسلام - على الوحي بنوعيه ، ويجتهد أصحابه ، فيصلح خطأهم ويبارك صوابهم .

وبعد وفاته - صلى الله عليه وسلم - كان صحابته يرجعون إلى كتاب الله وسنة رسوله ، ويجتهدون فيما لا يجدونه فيهما اعتماداً على الأشباه والنظائر ، وما أوتوا من الفهم .

ولم يكونوا - رضي الله عنهم - على مستوى واحد في الفهم والاستنباط ، وكانوا يختلفون في بعض الأحيان ، فإذا كان هذا الاختلاف مرجعه إلى عدم اطلاع بعضهم على سنة ، فإنه بمجرد أن يخبر بما غاب عنه يرجع إليه ، وإذا كان مرجع الاختلاف إلى اختلاف الفهم ، فإن كل منهم يفتي بما يراه غير عائب غيره .

وكثيراً ما كان ينشب بينهم النقاش الذي يصل إلى الحدة في بعض الأحيان ، ولكن سرعان ما ينتهي إما إلى تسليم أحد الفريقين للآخر أو استمرار كل على فهمه وكأن شيئاً لم يكن .

وهذا الاختلاف في الاجتهاد تعودوه في حياة الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - فقد دربهم عليه ، وخير مثال مسألة النداء إلى غزوة بني قريضة حيث طلب منهم الرسول الكريم أن لا يصلي أحد العصر إلا في بني قريضة ، فخرج الصحابة استجابة لهذا الأمر ، ولما ضاق الوقت صلى بعضهم العصر في الطريق قبل الوصول فاهماً من أمره - صلى الله عليه وسلم - الإسراع ليس إلا ، وأخر بعضهم الصلاة حتى غابت الشمس ووصل إلى بني قريضة ، ولما أعلم النبي - صلى الله عليه وسلم - بما فعل الفريقان لم يعنف أحداً ؛ وذلك دليل الموافقة على الاجتهاد ، إذا كان النص يحتمل أكثر من فهم .

وهكذا انتقل علم الصحابة إلى التابعين ثم إلى تابعيهم ، وبدأت المذاهب الفقهية تتبلور ، وكان العالم يكون اليوم تلميذاً لأحد المجتهدين ، وغداً صاحب مذهب

وصل إليه بتوفر شروط الاجتهاد فيه ، إلى أن بدأ الاجتهاد المطلق يتضعع ، وأصبحت السمة الغالبة التقليد ، وانتشرت بعض المذاهب الفقهية وكثر أتباعها ، وتقلصت أخرى وامحت . وعم سبات عميق استمر قروناً ، ثم ظهرت بعض الشخصيات الإسلامية الفقهية الإصلاحية التي حاولت أن تنبه المسلمين علماً وعملاً فشايحها أناس وحاربها آخرون .

وخلال فترة الجمود التي تحدثنا عنها بدأ التعصب المذهبي الفقهي يلعب دوراً كبيراً في تفتيت الأمة ، والحق أن التعصب موجود منذ بداية وجود المذاهب الفقهية ، ولكنه كان يمثل شذوذاً ، ولذلك نجد النجباء من الطلبة ينتقلون بين أئمة أصولهم مختلفة ، فلا يعد ذلك عيباً ، ولا يعامل من فعل ذلك معاملة المارق كما حدث في القرون المتأخرة .

إن الموضوع طويل الذيل ؛ ولذا فسأوجز القول فيه قدر المستطاع بإعطاء أمثلة حية عن نماذج من هذا التعصب زمن شذوذه وزمن تغلغله :

1. بلغ التعصب ببعض الشافعية أن حاول منع الناس من أن يدفنوا ابن عبد الحكم المالكي بجانب قبر الشافعي بل حاول بعضهم إخراجه بعد دفنه¹⁷.
2. يقول الراعي إن بعض قضاة القضاة الشافعية بمصر اشترى كتاب (النصر) للقاضي عبد الوهاب البغدادي المالكي في مائة مجلد بمائة دينار فمحاها وغرقها¹⁸.
3. وهذا قاض شافعي ينقل عنه قوله : لو قطع الله أثر مذهب مالك استراحت الناس منه¹⁹.
4. وابن السبكي يقول في طبقاته الصغرى ، كما ينقل الراعي : وأما أهل اليمن فنظر الله إليهم بعين العناية حيث لم يجعل منهم مالكيّاً ولا حنفيّاً ، وإنما كلهم مقلدون لمذهب الشافعي²⁰.

17 - الراعي : انتصار الفقير السالك ص 246 - 247 .

18 - م . ن ص 297 .

19 - م . ن ص 297 .

20 - م . ن ص 299 .

5. ومن تعصب بعض الأحناف قوله : إن الشافعية لا يناكحون . وقال بنت الشافعي ليست كفنأ لابن الحنفي²¹ .

وصنف قوام الدين الإتقاني الحنفي (ت 758 هـ) كتاباً في رفع اليدين في الصلاة ذكر فيه أن الصلاة لا تصح خلف الشافعية من خمس وثلاثين وجهاً²² .

6. ومن تعصب الشافعية والمالكية ما حكاه الراعي أيضاً قائلاً : " وبعد ما فرغت من تصنيف هذا الكتاب سمعت بعض مجانين الشافعية وكلابهم يتبجح ويقول في مسخرته بحضرة أبيه - وكان قاضياً - ولم ينكر عليه قوله - لعنهما الله - : إن الشافعي يأتي يوم القيامة وخلفه المصريون بعمائمهم الكبار وملابسهم الحسنة وثياب الحرير والصوف المفرحة فيدخلون الجنة ، ويأتي مالك يوم القيامة حافي الرجيلن مكشوف الرأس على هيئة شنيعة وخلفه المغاربة حفاة عراة على هيئة الحرافيش . وقال أشنع من هذا .

فقلت له : هذا كفر وزندقة وعدم إيمان بهول يوم القيامة وانتقاص العلماء ، والله لقد يأتي مالك يوم القيامة وخلفه أتباعه من كبار الأئمة وجلة العلماء كالأوزاعي والليث والثوري وابن عيينة وابن المبارك والشافعي وعبد الرحمن بن القاسم وغيرهم من أقرانهم وأتباعهم كالإمام أحمد والقاضي إسماعيل والمازري وغيرهم ، وجميع المغاربة والمالكية من المصريين وغيرهم على هيئة أهل الصفة وأصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في فقرهم وتقشفهم وإقلالهم من الدنيا ، فلا يحاسبون لذلك ، وجوههم كالقمر ليلة البدر مستبشرين مسرورين فرحين بما آتاهم الله من فضله ، فيدخلون الجنة تابعين لأهل الصفة وأصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بغير حساب ، لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، ويأتي أمثالك يوم القيامة من المتعصبين والخوارج من أهل مصر وغيرهم بعمائمهم الكبيرة المزغركة بالشراميط المجموع ثمنها من غصب وأكل أموال الأيتام وغيرهم وأكل الرشا والبراطيل وبيع أحكام الله - عز وجل - بمظالم العباد ، والنار تضرهم في شاماتكم الكبار وفرجياتكم التي جمعت من سحت

²¹ - م . ن ص 321 .
²² - م . ن ص 322 .

وحرام، وجوهكم مسودة عليها غبرة ترهقها قنطرة . تلفح وجوهكم النار وأنتم فيها كالحون ، فتدخلون النار تابعين لفرعون وهامان وقارون ، فعند ذلك ينظر الإمام الشافعي - رضي الله عنه - إليكم وأنتم على تلك الحالة الشنيعة فينكر أن تكونوا من أتباعه ، وقد تقدم قوله في الرؤيا : " مما يكذبون علي " ، ويأوي إلى شيخه وأستاذه ومعمله وحجته عند الله - عز وجل - مالك بن أنس - رضي الله عنهما - فيدخل معه الجنة تابعاً له ولأهل الصفة وأصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ورضي الله عنهم أجمعين وحشرنا في زمرتهم بمنه وكرمه وفضله آمين آمين آمين ."

ويوجد من تعصبات الحنابلة مثل ما ذكرناه .

فانظروا كيف رد الراعي الأندلسي تعصب هذا الشافعي بتعصب آخر ، وهكذا تنتسح الهوة ، ويصبح لا هم للعلماء إلا تتبع السقطات والرد على الغلطات .

من أسباب التعصب المذهبي

1. البغي : وهو مجاوزة الحد والإفراط في الأمور ، وهذا الإفراط يجر صاحبه إلى غلو في الحب وغلو في الكره ، فإذا أحب لا يرى إلا صواباً وإذا كره لا يرى إلا باطلاً ولو كان الحق أبلج ، وإذا انتفض عقله من غفلته وتنبه من غفوته - وقليلاً ما يحدث ذلك - سارع إلى التأويل في الحالتين ، ولجأ إلى ليّ أعناق الألفاظ وتحميلها ما لا تحتل .

والأمثلة كثيرة لا حاجة إلى جلبها هنا ، ويكفي أن ننبه إلى أن القرآن الكريم ذكر ذلك في معرض حديثه عن اختلاف الذين أوتوا الكتاب ، قال تعالى : (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلفوا فيه إلا الذين أوتوه من بعد من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم) البقرة / 211 .

وقال - سبحانه - : (إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم) آل عمران / 19 .

2. الهوى : وهو كل ما تهواه النفس وتشتهيه من مال أو جاه أو منصب أو نساء . وهو من أسباب التعصب ، فإذا صادف هوى الرجل شيئاً يتحقق به هذا الهوى

أيده ، ودافع عنه ، وكره من يخالفه ، فيترك الإنصاف والعدل في أحكامه على كل شيء .

وقد ورد ذم الهوى في الكتاب العزيز كثيراً ، من ذلك : قوله تعالى (ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) ص / 25 . وقوله : (ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله) القصص / 50 .

3. الجهل والقصور العلمي : الجهل هو الاعتقاد الجازم الغير المطابق للواقع . والإنسان - في الغالب - يجهل أكثر مما يعلم ، وقد ينسى هذه الحقيقة فيظن أن ما علمه هو الصواب ، وما علمه غيره هو الباطل ، فينكر على المخالف ما يقوله لا لشيء إلا لأنه يجهله ، فإذا كان الجهل بسيطاً ارتفع بمجرد سماع الحق ، وإذا كان مركباً فلا يغير فيه سماع الحق شيئاً .

وأكثر ما يحدث من تعصب مذهبي يأتي من الجهل والقصور العلمي ، خاصة عندما يقوم بعض الناس بأمر بمعروف أو نهي عن منكر - مع هذا القصور - فينقلب - أحياناً - المعروف منكراً لكونهم لم يعرفوه ، والمنكر معروفاً لكونهم ظنوه صواباً .

ذكر القاضي عياض في مداركه في كلامه عن الأحداث في الدولة العبيدية وعند نهايتها كيف قتل أناس لأنهم يصلون في وقت الضحى ، ولم يقبل من المصلي أنه يصل في الصباح - التي هي فريضة - قضاء ، وإنما اتهموه بصلاة الضحى . فانظروا إلى هذا الجهل كيف نشر الفتن .

وفي المقابل عندما انتهى حكم العبيديين انتقم بعض الناس ممن يظنونهم على مذهبهم حتى ولم يكن دليل على ذلك .

فقد ذكر صاحب المدارك - أيضاً - أن بعض الناس شكوا في عقيدة رجل ، فأخذه إلى القاضي ليفصل في أمره ، وفي الطريق لقيهم رجل من العوام فسألهم عن الأمر ، فأخبروه ، فاقترح عليهم قتله في الحين معللاً ذلك بأنه إن كان مشرقياً (مصطلح معروف آنذاك) فقد فعلوا الواجب ، وإن كان سنياً فقد عجلوا بروحه إلى الجنة .

فانظروا كيف يجني الجهل على أرواح أناس أبرياء فأبي شريعة تسمح بمثل هذا العمل .

ويقول الشيخ محمد الغزالي : حدث لي مرة أن أفتيت بجواز حج المرأة وحدها في الرفقة المأمونة ، فإذا طالب مكفوف يمسك بيدي - وهو يرتعش من الغضب - يقول : كيف تفتي بهذا الحكم المخالف للسنة ؟

قلت : إنما أنقل مذهبي الشافعي ومالك - رضي الله عنهما .

قال : هما يخالفان السنة .

قلت : هما لا يخالفان السنة .

ثم شرح له ذلك²³ .

مظاهر التعصب بصورة عامة والمذهبي على وجه الخصوص:

لما يسود التعصب مجتمعاً ما يظهر ذلك واضحاً في ملامحه ، وتبدو آثاره على تصرفات الناس عالمهم وجاهلهم ، ومن مظاهر هذا التعصب :

1. كتمان الحق ولو كان ظاهراً :

من مظاهر التعصب أن يكتم الحق مهما كان واضحاً ، بل ولا يتورع صاحبه عن الكذب لتشويه صورة الغير .

ولعل النوازل قديماً وحديثاً تبين هذا الأمر .

أما قديماً فقد قرأت منذ مدة في كتب التاريخ أن أحد سلاطين مصر تآقت نفسه - وهو لا علم عنده - إلى معرفة بعض الاختلاف بين بعض المذاهب الفقهية في العبادات ليختار تقليد أحدها ، فكلم قاضيه في ذلك ، فجاء القاضي وقال للسلطان : سأتوضأ وأصلي أمامك على المذهب الحنفي ، ثم أفعل نفسي الشيء على المذهب الشافعي فاختر أيهما شئت : فدعا القاضي بإناء فيه نبيذ فتوضأ مقتصرأ على الفرائض ، ماسحاً شعرات من رأسه ، ثم قام إلى الصلاة فكبر بالأعجمية وقرأ آية من القرآن دون أن يقرأ الفاتحة ، وأكمل ركعته على أسرع ما يكون الإسراع ، ثم جلس للتشهد الأخير فضطرب اضطراباً ثم قام منهيأً صلاته . والتفت إلى السلطان فقال له : هذا مذهب أبي حنيفة ، ثم دعا بإناء فيه ماء طهور فتوضأ كأحسن ما

²³ - محمد الغزالي : دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين ص 89 .

يكون الوضوء ، ثم صلى صلاته مطمئناً مترسلاً في قراءة الفاتحة والسورة ، ثم تشهد وصلى على النبي - صلى الله عليه وسلم - ثم سلم تسليمتين ، ثم النفث إلى السلطان فقال له : هذا مذهب الشافعي . فقال السلطان : لو لم يكن أبو حنيفة إماماً من أئمة المسلمين لقلت : هذا المذهب ليس من الإسلام في شيء .
وأما حديثاً فإن أحد أدعياء الصوفية المنحرفة أراد أن يحذر جماعته من بعض الدعاة إلى السنة فقال لأتباعه : إن هؤلاء يحرمون الصلاة على النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال له ابنه - وكان حاضراً - : يا أباي إنهم لا يحرمون ذلك ، فأسر إليه أبوه أن اسكت ، أنا أعرف ذلك ، ولكني أردت أن أنفر الناس منهم .
وما أظن أن النازلتين تحتاجان مني إلى تعليق .

2. التحذير من المنصفين :

قد يدخل المثال الأخير الذي تحدثنا عنه في هذه النقطة ، ولكننا أفردناها لزيادة الفائدة .

قال الشوكاني - رحمه الله - : " ومن هذا الجنس الذي يفعله أهل التعصب فرارهم من علماء الإنصاف ، وطعنهم على من اتصل بهم ، أو أخذ عنهم ، وتحذيرهم للعامة وللطلبة عن مجالسة من كان كذلك ، وإخبارهم لهم بأن ذلك العالم سيضلهم ويخرجهم مما هم فيه من المذهب الذي هم عليه ، ثم يذكرون - عند التحذير والإنذار - مطاعن يطعنون بها على ذلك العالم ، لمجرد سماعها يثور غضب كل مسلم ، ويلتهب طبع من يسمع ذلك كائناً من كان ... " ²⁴ .

3. قلب معاني الألفاظ :

من مظاهر التعصب أن تقلب معاني الألفاظ ، فيفرغ اللفظ من معناه ، ويعطي معناه جديداً منفراً وبغيظاً ، فمن ذلك لفظ الزندقة الذي أصبح يطلق على من هو مستقيم من المسلمين ، يحاول تطبيق ما يمكنه من الأحكام الشرعية ، حتى ولو على نفسه خاصة أو على أسرته ، بعد أن كان هذا اللفظ يحمل معنى من أظهر الإسلام وأبطن الكفر ، فأصبح إذا أطلق على شخص هذا اللفظ بمعناه الثاني ينفر

الناس منه ؛ لأنهم يعرفون معناه الأول ، ولا يشرحون لهم السبب الذي لبسوه به في صورته الجديدة .

ومن ذلك لفظ الإرهاب ومشتقاته أصبح يطلق - حتى في المجتمعات الإسلامية ومن باب أولى المجتمعات غير المسلمة- على كل غيور من المسلمين على دينه ، ومن هذا المنظار تصور الحكومة الأمريكية - ومن سار على نهجها - لشعبها أن أي تصرف يصدر من مسلم في الدفاع عن نفسه أو تحرير أرضه فهو محض إرهاب يجب على العالم قاطبة أن يقف في وجهه ، وأن ما تفعله أمريكا في العراق وأفغانستان وغيرها من بلاد العالم ، وما تفعله إسرائيل في فلسطين ولبنان وغيرها من بقاع الأرض ، هو محض دفاع عن النفس ومحاربة للإرهاب ، ولو باحتلال أراضي الغير التي تبعد عن بلاد الغازي عشرات الآلاف من الأميال ، ولو بتعذيب أهالي الأراضي المحتلة ، وهذا ما نشاهده في لحظتنا الراهنة من الصحف الأمريكية التي تتبجح بأن حكومتها سترسل - والحق أنها أرسلت - قنابل موجهة إلى إسرائيل لتضرب بها فلسطين ولبنان ، وتدمر البلاد والعباد في كلا البلدين ، وتمنع مجلس الأمن من النطق ببنت شفة - مع أن الكلام لا يعني شيئاً ، وتمنع حكام المسلمين من إصدار حتى بيان كاذب يقولون فيه بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ، مهددة إياهم بإزاحتهم عن عروشهم .

ومن أمثلة تغيير معاني الألفاظ ما ذكره الشوكاني أيضاً أنه رأى في بلاده كيف تغير مصطلح السنة ، فبعد أن كان يفخر بالانتساب إليه ويتنافس فيه المتنافسون ، صار في اصطلاح المتعصبة يطلق على من يعادي علياً ويوالي معاوية افتراء منهم على أهل العلم واجتراء على المسلمين²⁵ .

4. قصر الحق على شخص واحد :

من مظاهر التعصب أن يكون الحق مقصوراً على ما يقوله فلان ، وأن الباطل ما يقوله من يخالفه .

وقد أشار عز الدين بن عبد السلام إلى أن بعض المقلدين يتمكن التقليد منه حتى يجعله معتقداً أن الحق منحصر في مذهب إمامه²⁶ .

وقد ذكر خطورة ذلك الإمام سحنون بن سعيد المالكي حيث قال : " أجرأ الناس على الفتيا أقلهم علماً ، يكون عند الرجل باب واحد من العلم فيظن الحق كله فيه"²⁷ .

وهذا الذي قاله سحنون يظهر واضحاً في زمننا ، فكم من (كدت أقول طالب علم فوجدتها لا تصدق عليه) مبتدئ يظن أنه انتهى لا يعرف الفاعل من المفعول ، فإذا قدر لك سماعه متحدثاً فيجب أن نتدرب من جديد على صواب النحو والصرف مما حل بك من سماعك نصب المرفوع ورفع المخفوض حتى انقلب علمك وكاد يثبت عندك أخطاؤه من تكرارها .

قلت كم من هؤلاء من متصدر لمجالس العلم يرفع صوته بالفتيا متشنجاً قائلاً - عند فرض تواضعه - هذا الصحيح الراجح من الأقوال عند أهل العلم ، وعند فرض نسيانه للتواضع لا يذكر أن لقوله مخالفاً أصلاً ، وكأنه عد المخالفين لما قاله لا وجود لهم حتى ولو مثلوا الجمهور .

ومن هؤلاء إذا ذكرت له قولاً لمالك في مسألة أرغى وأزبد وقال : من مالك هذا؟ أكان مالك يعرف السنة ويحفظ القرآن ؟ !!!
لكن إن وافق أحد أقوال مالك هواه ارتفع تشنجه وخاطبك : هذا قول مالك ، وكفى به حجة .

وينتابك - والحالة هذه - الشك فلا تدري أمالك الأول هو مالك الثاني أم غيره ؟
موقف الإسلام من التعصب المذهبي :

الإسلام يمنع التعصب بجميع أنواعه إلا التعصب للحق عند اتضاحه ، ومع ذلك ، فإن هذا التعصب للحق لا يسمح بأن يهضم حق المخالف مهما كان .

²⁶ - ابن عبد السلام قواعد الأحكام 2 / 136 .
²⁷ - عياض : ترتيب المدراك 4 / 75 .

أما بقية أشكال التعصب للون أو الجنس أو العنصر فقد حاربها الإسلام حرباً لا هوادة فيها ، مبيناً أن الإنسان مكرم ، قال تعالى : (ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً) الإسراء / 70 .
وأنه من أصل واحد ، ولذلك لا فضل لأحد على آخر (يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى) الحجرات / 13 (يأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً) النساء / 1 وقد سبق أن ذكرنا مرتبة السود من الصحابة في حياة النبي - صلى الله عليه وسلم - وبعد وفاته .

ومنع الإسلام مناصرة الظلم ، وقد كان في الجاهلية شعار " انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً " ، فجاء الإسلام فحافظ على لفظه وعدل مفهومه ، فقد قال - صلى الله عليه وسلم - : " انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً قالوا : يا رسول الله هذا ننصره مظلوماً فكيف ننصره ظالماً . فقال : تأخذ فوق يديه " أخرجه البخاري كتاب المظالم ، باب أعن أخاك ظالماً أو مظلوماً (فتح الباري 5 / 71) .
ومنع الإسلام تقديس الأشخاص ليحول بين أتباعه وبين سبب من أقوى أسباب التعصب ، وقطعاً لهذه المسألة عمد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو أفضل الخلق بلا امتراء - إلى تحذير أمته من المغالاة فيه فيفعلون كما فعل النصارى فقال - عليه الصلاة والسلام - " لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبده ابن فقولوا عبد الله ورسوله " أخرجه البخاري (فتح الباري 355/6) كتاب حديث الأنبياء باب قول الله تعالى واذكر في الكتاب مريم .
ولذلك خلف - صلى الله عليه وسلم - جيلاً متخرجاً في مدرسة النبوة لا يقدسون الأشخاص ولا يتعصبون إلا للحق ، ولا يظلمون ولا يرضون بالظلم . وحياة الصحابة مليحة بالأمثلة ، جلبها يطيل الحديث .

ولكننا نضرب مثلاً واحداً لا يجادل فيه أحد هو أنه لا يفصل بين أي مخلوق على وجه الأرض أن يتساوى مع بقية المسلمين من ساعته إذا دخل الإسلام . أما تسامح الإسلام مع غير أهله ومعاملته إياهم فأمثلته لا تعد ولا تحصى²⁸ .

أما الاختلاف في الرأي ووجهات النظر والأحكام الاستنباطية فهو ضرورة يحتمها اختلاف البشر في مستوى ذكائهم وتفكيرهم وفهمهم . وقد تعرضنا لمثال يدل على أن النبي - صلى الله عليه وسلم - درب صحابته على ذلك في حياته .

ثم استمر ذلك بعد وفاته ، وقد مر بنا أنهم يتجادلون ويتناظرون في مسائل كثيرة، ولكن ذلك لا يؤثر على علاقاتهم شيئاً ، ولا ينقص من محبة بعضهم لبعض ولا من أخوتهم التي قررها القرآن الكريم .

وهذه بعض المسائل التي اختلف كبار الصحابة فيها ولم يؤثر هذا الاختلاف على مسيرة حياتهم :

1. اختلفوا في موته - صلى الله عليه وسلم - وقصة عمر وأبي بكر - رضي الله عنهما مشهورة .
2. اختلفوا في مكان دفنه - صلى الله عليه وسلم - .
3. اختلفوا في قتال أهل الردة.
4. اختلفوا في توريث الجدة .
5. اختلفوا في مسألة الاستئذان .

وهذه الأمور كلها اتفقوا فيها بعد الخلاف لما نقلت إليهم السنة في ذلك ، وقد كانت غابت عن بعضهم .

أما في الفروع الفقهية فقد كان الخلاف بينهم أوسع ، وقد استمر أكثره دون اتفاق، ومع ذلك اتسعت صدورهم لهذا الاختلاف فلم يعب بعضهم على بعض . وهذه نماذج من الخلافات الفرعية :

1. كان عمر - رضي الله عنه - لا يرى التوقيت في المسح على الخفين .

²⁸ - عرضنا منها نماذج في بحث شاركنا به في مؤتمر نظمته جامعة آل البيت بالأردن في العام الماضي . و ينظر محمد الغزالي: التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام ، فقد جمع فيه أمثلة كثيرة .

2. الخلاف بين أبي بكر وعمر في ميراث الإخوة مع الجد ، فأبو بكر - رضي الله عنه - يرى الجد أبا فيحجب به الإخوة ، وعمر - رضي الله عنه - يشركهم معه .

وكتب الفقه المقارن والتفاسير وشروح الحديث مشحونة بمثل هذه المسائل التي اختلف فيها الصحابة ، وبقي كل على رأيه لما لم يكن دليل قاطع يرجع إليه الجميع ، وإنما هو الاجتهاد .

والأمر نفسه تكرر بل استمر في عصر التابعين وتابعيهم .

1. فهذا عبد الوارث بن سعيد يسأل ثلاثة من أئمة الفقه فيأتيه الجواب مختلفاً تماماً. فقد سأل أبا حنيفة وابن أبي ليلى وابن شبرمة عن حكم البيع الذي يصاحبه شرط ، فكان الجواب من أحدهم أن البيع والشرط باطلان ، ومن الآخر أن البيع صحيح والشرط باطل ، ومن الثالث أن البيع صحيح والشرط صحيح . ودلل كل منهم على ما ذهب إليه .

2. والخلاف بين مالك والليث معروف مشهور ، وسيأتي كتاب كل منهما إلى الآخر ، وكذلك بين الشافعي وشيخه مالك .

لكن هذا الاختلاف الذي ذكرنا أمثلة موجزة منه كان لا أثر له على النفوس وتصرفات أصحابها تجاه من خالفوه ؛ لأن خلافهم كان مبنياً على أدب الإسلام في المخالفة في الرأي ، وهذه أهم معالم هذا الأدب :

1. يتحاشون الخلاف ما أمكن .

2. المسارعة إلى كتاب الله وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - .

3. كانوا يعتبرون الاستدراكات معونة من بعضهم لبعض .

4. كانوا في اختلافهم لا يخطئون الآخرين ولا يسبونهم ، ولا ينسبونهم إلى الجهل

أو ما مثله في العبارات ، بل كانت عباراتهم في ترجيح آرائهم متأدبة غاية

الأدب ، فتجد أحدهم يقول : هذا أحوط أو أحسن ، أو أكره ذلك ، أو لا

يعجبني .

5. التزام التقوى والإخلاص والتجرد عن الهوى وعدم التعصب للأشخاص .

6. كانوا يتأدبون في حضرة مخالفيهم أحياناً وأمواتاً ، فهذا أبو يوسف يصلي خلف الرشيد وقد احتجم ، مع أن أبا يوسف يرى أن الصلاة باطلة لانتقاض الطهارة .

وهذا أحمد بن حنبل يجيب من سأله عن الصلاة خلف من من لم يتوضأ من الرعاف والحجامة قائلاً : كيف لا أصلي خلف الإمام مالك وسعيد بن المسيب ؟ وقد صلى الشافعي بقرب مقبرة أبي حنيفة فلم يقنت . وهذا مالك لم يرض للخليفة أن يجبر الناس على اتباع موطنه عندما اقترح عليه ذلك .

أما الأدب في التخاطب بالكتابة فيمثل رسالة مالك إلى الليث ورد الليث عليها نوردهما مختصرتين ، والذي يهمنا من هاتين الرسالتين - هنا - هو أدب الخطاب مع الاختلاف :

" من مالك بن أنس إلى الليث بن سعد ، سلام عليك ، فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو . أما بعد عصمنا الله وإياك بطاعته في السر والعلانية ، وعافانا وإياك من كل مكروه . اعلم - رحمك الله - أنه بلغني أنك تفتي الناس بأشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس عندنا وببلدنا الذي نحن فيه ، وأنت في إمامتك وفضلك ومنزلتك من أهل بلدك وحاجة من قبلهم إليك واعتمادهم على ما جاء منك ... فانظر - رحمك الله - فيما كتبت لك فيه لنفسك ، واعلم أنني أرجو أن لا يكون دعائي إلى ما كتبت به إليك إلا النصيحة لله تعالى وحده ، والنظر لك ، والظن بك ، فأنزل كتابي منك منزله ، فإنك إن فعلت تعلم أنني لم آلك نصحاً . وفقنا الله وإياك لطاعته وطاعة رسوله في كل أمر وعلى كل حال ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته " .²⁹

ومن جواب الليث : " سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد ، عافانا الله وإياك وأحسن لنا العاقبة في الدنيا والآخرة ، قد بلغني كتابك تذكر فيه من صلاح حالكم الذي يسرني ، فأدام الله ذلك لكم وأتمه بالعون على شكره والزيادة على إحسانه ، وذكرت نظرك في الكتب التي بعثت بها إليك وإقامتك

²⁹ - عياض : ترتيب المدارك / 1 / 41 - 43 . والراعي انتصار الفقير السالك ص 247 - 248 .

اياها وختمت عليها بخاتمك ، أنتنا فجزاك الله عما قدمت منها خيراً ، فإنها كتب انتهت إلينا عنك فأحببت أن أبلغ حقيقتها بنظرك فيها ، وذكرت أنه قد أنشطك ما كتبت إليك فيه من تقويم ما أتاني عنك إلى ابتدائي بالنصيحة ، ورجوت أن يكون لها عندي موضع ، وأنه لم يمنعك من ذلك فيما خلا إلا أن يكون رأيك فينا جميلاً ، إلا لأنني لم أذكرك مثل هذا ، وأنه بلغك أنني أفتي بأشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس عندهم ، وأنا يحق علي الخوف على نفسي لاعتماد من قبلي على ما أفتيهم به ، وأن الناس تبع لأهل المدينة التي إليها كانت الهجرة ، وبها نزل القرآن وقد أصبت بالذي كتبت من ذلك - إن شاء الله - ووقع مني بالموقع الذي تحب ... وأنا أحب توفيق الله إياك وطول بقائك لما أرجو للناس في ذلك من المنفعة ، وما أخاف من الضيعة إذا ذهب مثلك ، مع استثناسي بمكانك - وإن نأت الدار - فهذه منزلتك عندي ورأيي فيك فاستيقنه ، ولا تترك الكتاب إلي بخبرك وحالك وحال ولدك وأهلك وحاجة إن كانت لك أو لأحد يوصل بك ، فإنني أسر بذلك ، كتبت إليك ونحن صالحون معافون والحمد لله ، نسأل الله أن يرزقنا وإياكم شكر ما أولانا وتمام ما أنعم به علينا ، والسلام عليك ورحمة الله . " 30 .

ونختم هذا المبحث بالكلام عن مسألة اختلف فيها العلماء قديماً وحديثاً ، فأما القدماء فقد تلقوا هذا الخلاف بصدر رحب ولم يعنف بعضهم بعضاً ؛ وذلك لسعة علمهم واتساع مداركهم ، وأما المعاصرون فقد وضعوها فوق مستواها وعنف بعضهم بعضاً بسببها ؛ وذلك لقلّة العلم وضيق الأفق . هذه المسألة هي رفع الأيدي في الصلاة في غير تكبيرة الإحرام .

قال ابن عبد البر : " وقد أكثر أهل العلم بالكلام في هذا الباب ، وأفرط بعضهم في عيب من لم يرفع ، ولا وجه للإكثار فيه " .

وروي عن ابن المبارك أنه قال : صليت إلى جنب أبي حنيفة فرفعت يدي عند الركوع وعند الرفع منه . فلما انقضت صلاتي قال لي : أردت أن تطير ؟

فقلت له : وهل من رفع يديه في الأولى (يعني عند تكبيرة الإحرام) يريد أن يطير ؟ فسكت ³¹.

ونقل ابن عبد البر أيضاً عن أحمد بن خالد قوله : كان عندنا جماعة من علمائنا يرفعون أيديهم في الصلاة على حديث ابن عمر وروايته عن مالك ، وجماعة لا يرفعون إلا في الإحرام على رواية ابن القاسم ، فما عاب هؤلاء على هؤلاء ، ولا هؤلاء على هؤلاء ³².

وفي عصرنا هذا يتكلم بعض من له نصيب من العلم - بمناسبة افتتاح مسجد - فينفي نفياً قاطعاً وجود أحد يقول بوضع اليمنى على اليسرى في الصلاة ، ولا رفع الأيدي في غير تكبيرة الإحرام ، ولا رواية صحيحة بذلك عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولا الصحابة ولا التابعين ولا الأئمة المتبوعين ، قال ذلك وهو يعلم - يقينا - أن الذي قاله ليس صحيحاً ، ولكنه التعصب المقيت الذي يجر صاحبه إلى الكذب الصراح ، فإننا لله وإنا إليه راجعون .

أما صب اللعنات والسب بسبب التعصب وكراهة المخالف فالساحة الإسلامية مليئة به في عصرنا هذا ونكتفي بما أوردناه ³³.

وأما التعصب الذي يؤدي إلى تغيير العبارات في الكتب بما يوافق هواه أو هوى غيره فمن أفظع أنواع التعصب ، وهو يزيد على التعصب العادي بأنه خيانة لا أمانة ³⁴.

فالتعصب غير الخائن يكفيه أن يرد على كلام العلماء الذي لا يعجبه إما بالتعليق على كلامهم بعد إثباته ، أو بتأليف مستقل ، أما أن يغيره فهذا ما لا يفعله عالم يحترم نفسه .

³¹ - ابن عبد البر : التمهيد 9 / 228 - 229 .

³² - ابن عبد البر : الاستذكار 2 / 124 .

³³ - ونحيل إلى كتاب الشيخ محمد عوامة في أدب الرأي .

³⁴ - م . ن ص 77 - 78 .

المبحث الرابع

علاج التعصب عموماً والمذهبي على الخصوص

إن الخروج من مأزق التعصب والقضاء على آثاره يتأتى بدراسة أسبابه وتشخيصها ، فالتشخيص مرتبة قبل إعطاء الدواء .

وبعد أن درسنا هذه الأسباب ، وعرفنا كثيراً من الاختلافات التي وقعت بين علماء الأمة دون أن تجر إلى التعصب المقيت ، الذي يؤدي أحيانا إلى إزهاق الأرواح ، وأن التعصب في الأمة كان شذوذاً ، والشاذ لا حكم له ، بعد كل هذا أرى أن المسألة تعالج بالأمور الآتية مجتمعة غير منفردة ، ولا نطلب تطبيقها فجأة أو بين يوم ليلة ، ولكن لابد من التدرج .

وقبل أن أذكر هذه النقاط أقول : إن تعصب الأعداء علينا وعلى ديننا سببه من عند أنفسنا ، فنحن مقصرون في الدعوة إلى الإسلام وتوضيح معالمه لمن يجهله ، ولا أقول إن الدعوة الآن مختلفة ، ولكن أقول إنها دون الأمل المنشود ؛ وذلك لأسباب متعددة ، فعندما تظهر صورة الإسلام الحقيقية يعرف الخصوم أن الإسلام لا ينظر إلى الصور ولا إلى الألوان ، وإنما النظر إلى التقوى والخوف من الله والعدل بين الناس .

لا يقال إن ذلك ضرب من الخيال الذي لا وجود له في الواقع ؛ لأننا نقول قد وجد في الواقع رديحاً من الزمن حكم الإسلام ، فعاش في كنفه المسلم وغير المسلم وغير المسلم حياة آمنة مطمئنة ، وما وجد فهو قابل أن يوجد مرة أخرى إذا توفرت ظروفه .

نرجع إلى الحديث عن الأمور التي إذا توفرت غاب التعصب أو على الأقل أصبح يمثل شذوذاً ، وهذه أهمها :

1. الحرية الكاملة بمعناها الإسلامي . قلت بمعناها الإسلامي حتى لا يفهم من كلامي أنني أنادي بالحرية الإباحية الغربية ، أو بالحرية على شعار الغرب ، التي فضحت دولياً ؛ لأنها كيل بمكيالين وبيع وشراء بعملتين . الحرية التي تتادي بها هي تلك التي تضمن للناس حرية العبادة والتفكير وإبداء الرأي والدعوة إليه بالطرق السلمية وحرية التعليم .

تحت هذه الحرية حصلت هذه المناظرة التي ذكرها عياض في مداركه حيث قال :
" وذكر أن رجلاً من أصحاب محمد بن سحنون دخل بمصر حماما ، عليه رجل
يهودي ، فتناظر معه الرجل فغلبه اليهودي ، لقلة معرفة الرجل : فلما حج محمد
بن سحنون صحبه الرجل ، فلما دخل مصر قال ابن سحنون لتلميذه : - امض بنا
- أصلحك الله إلى الحمام الذي عليه اليهودي .

فلما دنا خروج محمد سبقه الرجل ، وأنشبه (أي بدأ) المناظرة مع اليهودي ثم
جاء محمد فأخذ في مناظرته حتى حانت صلاة الظهر ، فصلاها محمد ، ثم رجع
معه إلى المناظرة حتى كانت العصر فصلاها ، ثم المغرب ، ثم العشاء الآخرة ،
وقد اجتمع الناس وشاع الخبر بمصر : الفقيه المغربي يناظر اليهودي ، فلما كانت
صلاة الفجر انقطع اليهودي وتبين له الحق فأسلم ، فكبر الناس وعلت أصواتهم .
فخرج محمد ، وهو يمسح العرق عن وجهه ، وقال لصاحبه : لا جزاك الله خيراً .
كاد أن يجري على يديك فتنة عظيمة ، تناظر يهودياً وأنت بضعف ، فإن ظهر
عليك اليهودي - لضعفك - افتنن من قدر الله فتنته³⁵ .

فانظروا كيف تحدث هذا اليهودي بحرية مطلقة دون أن يتلقى أدنى تهديد ، فلما
اقتنع أسلم ، ومصدق ذلك في القرآن الكريم (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد
من الغي) البقرة / 254 .

هذه الحرية التي سمحت لمختلف الفرق بل ولمختلف الديانات أن تعقد المناظرات
المفتوحة في بيت المقدس وغيره كما يخبر بها القاضي أبو بكر بن العربي في
رحلته .

هذه الحرية التي لا يمكن أن تكون إلا تحت سلطان عادل لا تخشى الرعية منه
حيفاً ولا ظلماً .

فإن الظلم والحيف والميلان إلى جانب على حساب آخر ، يولد التعصب ، فيصل
أذاه إلى الظالم نفسه ، ولو كان بعيداً عن مكان الظلم .

2. رفع الإرهاب الفكري بجميع أنواعه ، وهذا داخل في النقطة السابقة ، فإن
ممارسة الإرهاب الفكري تنتج التعصب وتقويه في الجهتين المتقابلتين .

وقد عاش بعض العلماء الأفاضل في العالم الإسلامي هذا الإرهاب الذي كان يمارس عليهم من قبل بعض الفئات لمصالح مختلفة ، وعندنا أمثلة كثيرة في التاريخ الإسلامي من ذلك ما حدث للإمام مالك ، حيث منع من الافتاء في بعض مسائل الطلاق³⁶ ، والإمام أحمد في مسألة خلق القرآن³⁷ ، وأبي إسحاق التونسي،³⁸ والباجي³⁹ ، وعز الدين بن عبد السلام⁴⁰ ، وابن تيمية⁴¹ ، والشاطبي⁴² وهلم جرا إلى يومنا هذا . بل في يومنا هذا المحنة أعظم والابتلاء أكبر⁴³ .

3. تدريس المذاهب الإسلامية المختلفة عقدياً وفقهية .

إن تدريس الطلبة المذاهب المختلفة خصوصاً في المراحل المتقدمة يذهب التعصب، شريطة أن يعتمد في إعطاء المعلومة المصادر الأصلية ، التي كتبت بأقلام أتباعها ، لا بأقلام خصومها .

وقد يقال : إنك - إن عممت هذا الأمر على كافة التخصصات ، حولتهم إلى متخصصين في هذا المجال ، مع أن تخصصهم بعيد من ذلك .

أقول : لا أقصد التوسع في هذه الدراسة لغير المتخصصين ، وإنما يعطون نبذة موجزة عن الفرق العقدية .

وأما تدريس المذاهب الفقهية المختلفة فهو مهم جداً ، فلا بأس أن يبدأ مع الطالب بالمذهب الفقهي السائد في بلده ، وكلما تقدم به العمر علمناه فقه المدارس الأخرى بأدلتها دون تعصب .

فمادة الفقه المقارن ومادة أسباب اختلاف الفقهاء توسعان مدارك الطالب وتبعدان عنه التعصب .

وقد لوحظ عن بعض العلماء المنغلقيين الذين - كما قال سحنون - لا يعرفون من الحق إلا وجهاً واحداً يظنون كل الحق فيه لوحظ تراجعهم في عباراتهم ، تمكنهم

³⁶ - عياض : ترتيب المدارك

³⁷ - والمحنة مشهورة ذكرها كل من ترجم له .

³⁸ - عياض : ترتيب المدارك 8 / 59 - 62 .

³⁹ - حدث له ذلك أثناء تدريسه للبخاري ينظر تحقيق المذهب للباجي ص 115 - 157 .

⁴⁰ - ابن السبكي - طبقات الشافعية الكبرى 8 / 210 .

⁴¹ - ينظر مواضع كثيرة من البداية والنهاية لابن كثير خصوصاً 14 / 60 ، 156 - 160 .

⁴² - ينظر : حمزة أبو فارس : البدع وموقف الإمام الشاطبي منها مجلة الموافقات المعهد الوطني العالي لأصول الدين- الجزائر العدد

الأول 1992 م ص 319 - 363 .

⁴³ - بمنعنا من التصريح والتوضيح نفس المشكلة التي نتحدث عنها في هذه الفقرة .

من المذاهب الفقهية الأخرى ، غير مذهبهم السائد ، فبعد أن كان جوابهم للسائل : هذا هو الحق ، وهذا هو الصحيح ، وما سواه باطل ... بدأت العبارات تأخذ مجرى آخر ، إذ أصبح يقول : في المسألة خلاف للعلماء ، وفي المسألة أقوال . ولذلك كان الشاطبي - رحمه الله - يرى أن اعتياد الاستدلال لمذهب واحد ربما يكسبه نفوراً أو إنكاراً لمذهب غير مذهبه من غير اطلاع على مأخذه ، فيورث ذلك حزازة في الاعتقاد في فضل الأئمة الذين أجمع الناس على فضلهم وتقدمهم في الدين ، واضطلاعهم بمقاصد الشارع وفهم أغراضه⁴⁴ .

4. الاعتناء بأدب الخلاف :

لا بد لاجتئات التعصب المذهبي من الاعتناء بأدب الخلاف ، فيجب أن يأخذ حيزاً من مناهجنا الدراسية وبرامجنا الإذاعية ، ونختار له العبارات المؤثرة ، والأمثلة الحقيقية من الكتب المعتمدة ، ولا مانع من إعادة صياغتها إذا كانت الألفاظ فيها صعوبة على فهم الناشئة .

ولا بد من تدريس نماذج من سير علمائنا من مختلف المذاهب الفقهية ، والتعريف بمبلغهم من العلم ، حتى يعرف من ينقصهم قدره فيقف عنده ، والتركيز على كيفية احترام علماء الأمة بعضهم لبعض ، والبعد عن بعض الأخبار المدروسة التي أودعها بعض المغرضين أو الغافلين مما يوحي بنقص العلماء والعييب فيهم ؛ ولذلك لا بد من إعداد هذا المنهج بإتقان من قبل أناس متخصصين يتصفون بالوسطية والاعتدال لا يهمهم إلا إنقاذ الأمة .

5. النصح بالأخذ عن الشيوخ وعدم الاعتماد - خاصة في ابتداء التعلم - على الكتب وما شابها في فهم الفقه ، فإن ذلك يدخل كثيراً من العلم مغلوطاً ، وبمرور الزمن يستقر هذا الأمر في فهم الطالب فيحسبه علماً يقينياً ، فيدافع عنه ، وما هو إلا حاصل فهمه السقيم .

ولقد جاءني منذ مدة قريبة طالبة تعمل بحثاً فقهياً لدرجة علمية جاءتني متحيرة من عبارة لأحد الفقهاء الشافعية فهمتها فهماً خاطئاً ، ولما أرادت إثباتها في بحثها أحست أن هناك تناقضاً بين كلام المؤلف هذا ، وبين كلام مؤلف آخر في نفس

المذهب ، ولما شرحت لها عبارة الفقيه انحل اللغز لديها ، وذهب التناقض الذي فهمته في بداية الأمر .

لكن هنا يجب أن ننبه إلى أمر آخر ، وهو اختيار الأساتذة الأكفاء ؛ لأن الأستاذ إن كان نفسه قاصراً عن شرح المسائل الفقهية فماذا سيكون مصير الطالب ، وإننا نعرف أساتذة يشرفون ويناقشون أبحاثاً فقهية على مستوى الماجستير والدكتوراه لم يشموا للفقه رائحة ، وإنما غرهم ما يحملون من شهادة ومؤهل ، فظنوا أن المؤهل لا بد أن يكون صاحبه عالماً ، ولا علاقة للأمرين ببعضهما في واقعنا المعاصر .

فإذا أردنا أن نرجع الأمر إلى نصابه فيجب غربلة تلك الأعداد الهائلة التي تدرس في جامعاتنا ، ولا أخفي أن الأمر نسبي في البلاد الإسلامية ، ولكن البلية كادت تعم .

6. لا بد أن نغرس في شباب الأمة أن الخير في الائتلاف والشر في الاختلاف ، وأن الإسلام يدعو إلى الوحدة ، ويحذر من التشرذم . وهذا ما يجب أن تتجه إلى الدعوة إليه جهود علماء الأمة وخصوصاً قادة الدعوة .

كما يجب أن نبين أن الاختلاف في الفروع المستنبطة اجتهاداً ضرورة لا بد منها ، ولا يؤثر هذا الاختلاف شيئاً على المحبة والانتماء والنصرة .

7. ترسيخ فكرة أن الفتوى لا يعالجها إلا أهلها ، وذلك بعد النضج الطبيعي ، وقلت الطبيعي ؛ لأن العلم كالفاكهة ، فإذا حصدت قبل وقتها فإنه لا طعم لها .

وهذا النضج لا يأتي إلا بعد المرور بمراحل ، فإن من طوى دراسته طياً أو قطعها قبل إبانها يصدق عليه قول أبي حنيفة لتلميذه أبي يوسف عندما جلس للتدريس دون استئذان ، فأرسل إليه أبو حنيفة رجلاً سأله خمسة أسئلة وعلمه الجواب ، فذهب الرجل إلى أبي يوسف فسأله هذه الأسئلة فلم يعرف جوابها ، فأجاب الرجل ، فعلم أبو يوسف أن أبا حنيفة بعثه ، وأنه تعجل الأمر قبل أوانه ، فرجع إلى درس أبي حنيفة ، فقال له قولته المشهورة: تزببت قبل أن تحصرم⁴⁵.

معناه أن العنب لا يصل إلى مرحلة الزبيب إلا بعد مروره بمرحلة الحصرم ، ويستحيل أن يتعداها ، وهذا حال المستعجلين⁴⁶ .

وفي الموطأ : مالك عن أبي النضر مولى عمر بن عبيد الله عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف أنه قال : سألت عائشة زوج النبي - صلى الله عليه وسلم - : ما يوجب الغسل ؟

فقالت : هل تدري ما مثلك يا أبا سلمة ؟ مثل الفروج يسمع الديكة تصرخ فيصرخ معها . إذا جاوز الختان الختان فقد وجب الغسل⁴⁷ .

قال الباجي في شرحه : وقولها : هل تدري ... يحتمل معنيين : أحدهما أن أبا سلمة كان في زمان الصبا ، وقبل أن يبلغ حد الجماع يسأل عن مسائل الجماع ويتكلم فيها ، وهو لا يعرفها إلا بالسماع من غيره ، كالفروج الذي يسمع الديكة التي بلغت حد الصراخ فيصرخ معها ، وإن لم يبلغ ذلك الحد .

والثاني أن أبا سلمة كان صبيّاً لم يبلغ مبلغ الكلام في العلم إلا أنه كان يسمع الرجال والكهول يتكلمون في العلم فيتكلم معهم⁴⁸ .

8. لابد من تدريب الناس : عالمهم وجاهلهم على فقه الأولويات :

العلم مراتب ودرجات ، وأهميته تختلف باختلاف هذه المراتب ، ورحم الله الشيخ علي الطنطاوي الذي كان يشرح دائماً هذه المسألة ، ويشدد على أهميتها . وقد ظهر لي أهمية ما كان يقوله بعد فترة من سماعه ، فقد كان - رحمه الله - فطنا عالماً بمواطن الداء في واقع المسلمين .

ولا أستطيع هنا أن ارتب هذه الأولويات ؛ لأن هذه الورقة لم تعد لذلك ، ثم إن هذه المراتب تختلف من زمن إلى آخر ومن مكان إلى آخر ، باستثناء شيء له المرتبة الأولى مطلقاً وهو العقيدة .

وأحسب ، والله أعلم - أنه لهذا السبب كان جواب النبي - صلى الله عليه وسلم - لصاحبه عن سؤال واحد - وهو أي الأعمال أفضل ؟ - مختلفاً من صحابي

46 - محمد عوامة ، صفحات في أدب الرأي ص 49 .

47 - مالك : الموطأ 1 / 46 كتاب الطهارة باب واجب الغسل إذا التقى الختان .

48 - الباجي : المتقى 1 / 96 .

لآخر ؛ إذ قد وضع له - صلى الله عليه وسلم - وجه القصور عند كل منهم
فقدمه في المرتبة الأولى ؛ لعلمه باستقامة الجوانب الأخرى عند السائل .
وقلت في مبدأ الفقرة عالمهم وجاهلهم ؛ لأن الجاهل يجب أن يعلم وجوب السؤال
عن الأهم من أمور دينه ، ولأن العالم يجب أن يخبر من لا علم عنه عن الأهم
قبل المهم ، ولذلك قال العلماء : لا يجب تعلم أحكام الزكاة على من لا تجب عليه
، ولا الصيام قبل وصول وقته ، ولا الحج على غير المستطيع وهكذا .

9. إشغال الشباب بهموم الأمة حتى يجعلوها رأس مالهم :

وهو تابع لمسألة فقه الأولويات ، فإن العاقل إذا وجد مسلماً يهيم كافر بذبحه يجب
أن ينقذه فوراً من هذا القتل - إن كان قادراً على ذلك - لا أن يقول انتظر أعلمك
كيف تجلس الجلسة الصحيحة في التشهد مثلاً .

وشبيه بهذا ما تراه اليوم - وقد حدث مثله من قبل - من المعارك الدائرة بين
بعض العلماء ، أو قل المتعلمين في مسائل اجتهادية اختلفت فيها الفهوم ، وفي
الوقت نفسه لا ينطقون ببنت شفة ضد الظلم الذي يحل بالمسلمين من بني جنسهم
تارة ، ومن أعدائهم تارة أخرى .

أو يضيع الرجل وقتاً طويلاً في مناقشة مستحب ويجهد نفسه لمعرفة راجحه من
مرجوحه ، ويترك بذل الجهد فيما هو متخصص فيه مما ينفع المسلمين أو ينقذهم
من كارثة .

ذكر الشيخ محمد الغزالي - رحمه الله - في حديث له بالإذاعة ، أنه مر بصيدلي
مسلم - له حرقه على دينه - يناقش آخر بتشنج في مسألة أحد مندوبات الصلاة ،
ولما رأى الصيدلي الشيخ فرح وطلب منه أن يعطي رأيه في المسألة ، متمنياً
ولا شك أن يكون الرأي لصالحه ، فبادر الشيخ بسؤاله : أنت مسلم تحب الخير
للمسلمين ؟ قال : نعم . قال الشيخ : إذا اترك هذا وانتبه لتخصصك وراقب
الأدوية التي تأتينا من كل مكان هل هي فعالة أو لا ؟ هل ما زال تاريخ صلاحيتها
لم ينته بعد ؟ فإنك إن فعلت هذا خدمت المسلمين خدمة جلييلة ، أما المسألة التي
تناقشها فاتركها لأهل التخصص .

وانظر كيف يرسل علماء الأندلس رجلاً ليسأل ابن عرفة الورغمي في تونس عن مسألة دعاء الإمام بعد الصلاة ، وكذلك يفعل أهل سلا في المغرب ، بعد عشر سنوات من مسألة الأندلس . أقول : انظروا كيف يفعلون ذلك والعدو حولهم يتربص بهم ، وقد أخذ بعض البلاد الإسلامية ، فأين هذا من ذلك ؟

10. دعوة الناس عن طريق جميع الوسائل المتاحة إلى التوسط والاعتدال ، فإن ذلك يذهب التعصب بجميع أنواعه ، وتكون هذه الدعوة بتطبيق الأمور التي سبق ذكرها .

ولا نعني - هنا - بالاعتدال والتوسط أن نتبع الأقوال الشاذة التي هي انسلاخ من الدين ، ولكننا نعني بها إتباع القرآن والسنة كما فهمها جمهور علماء الأمة . وهذا موضوع طويل يحتاج إلى محور خاص ، وقد كتبت فيه الكتب ، وإنما تكفي هنا الإشارة إلى أهميته .

11. سبق أن ذكرنا أن من أسباب التعصب أن يعتقد المسلم أن الصواب دائماً مع العالم الفلاني ؛ ولذا فإن جميع ما يقوله حق ، وما يقوله غيره باطل ، فوجب أن لا تؤخذ الأحكام إلا منه .

وبناء على ذلك فإن من الطرق التي يقضى بها على التعصب الفقهي ، أن نجعل مناهجنا وأحاديثنا في الإذاعات ، المسموعة والمرئية ، والمجلات المتخصصة في علوم الشريعة ، والكتب التي تصدرها المؤسسات المتخصصة أعني إدارات الأوقاف والجامعات الإسلامية ، وما في حكمها ، نجعلها تربي المسلم على اتباع الحق أين وجده ، وتحرره من التقليد الأعمى ، وهذا يستدعي تضافر الجهود من المخلصين للشريعة الإسلامية ، ولكن ذلك يحتاج إلى أموال فيرجع بنا الحديث إلى من بيدهم أمور المسلمين .

12. إتاحة الفرصة لعلماء الأمة - غير علماء السلاطين الذين مل الناس سماعهم ونفروا من كلامهم - حتى يوجهوا الشباب إلى خير ما فيه الأمة ، من غير توجيه ولا ضغط من الحكام ، فإن الشباب أصبحوا لا يثقون بالعلماء (الرسميين) ؛ لأنهم يعرفون سلفاً من يقودهم ويوجههم ، وإذا انعدمت الثقة فإن الكلام يدخل من أذن ويخرج من أخرى دون أن يعرج على القلب .

وفي الختام أقول : الكلام في هذا الموضوع يجرى لا ساحل له ؛ لأنه يمثل همّاً واقعاً ، فلنكف القلم عن الكتابة ، عسى أن تتاح فرصة أخرى لاستكمال الحديث وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه .

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم برواية قالون عن نافع طبعة ليبيا .
- الأشعري (أبو الحسن علي بن إسماعيل) : مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد المكتبة العصرية - صيدا - بيروت 1419 هـ 1999 م .
- الباجي (أبو الوليد سليمان بن خلف) : المنتقى شرح الموطأ مطبعة السعادة بمصر ط¹ 1332 هـ .
- الجيدي (عمر) : محاضرات في تاريخ المذهب المالكي في الغرب الإسلامي منشورات عكاظ المغرب 1987 م .
- الخزندار (محمود) : فقه الائتلاف مراجعة الشيخ علي خشان دار طيبة الرياض ط¹ 1421 هـ .
- الدمخي (عادل) : التعصب مظاهره أسبابه نتائج البعد الشرعي . مقال على شبكة المعلومات بتاريخ 18 / 5 / 2005 .
- الذهبي (شمس الدين أحمد بن عثمان) : تاريخ الإسلام (عهد الخلفاء الراشدين) تحقيق عمر عبد السلام تدمري دار الكتاب العربي بيروت ط¹ 1407 هـ 1987 م .
- الرازي (محمد بن عمر) : اعتقادات فرق المسلمين والمشركين تحقيق علي سامي النشار دار الكتب العلمية - بيروت 1402 هـ 1981 م .
- الراعي (محمد بن محمد) انتصار الفقير السالك لترجيح مذهب الإمام مالك تحقيق محمد أبو الأجنان دار الغرب الإسلامي - بيروت ط¹ 1981 م .
- أبو زهرة (محمد) : تاريخ المذاهب الإسلامية دار الفكر العربي - القاهرة .
- السباعي (مصطفى) : من روائع حضارتنا دار الإرشاد بيروت ط² 1388 هـ 1968 م .
- ابن السبكي (عبد الوهاب) : طبقات الشافعية الكبرى تحقيق عبد الفتاح الحلو ومحمود الطناحي مؤسسة قرطبة بمصر ط¹ 1385 هـ 1966 م .

- الشاطبي (أبو إسحاق) : الموافقات تحقيق أبي عبيدة مشهور آل سلمان دار ابن عفان - الجيزة - مصر ط¹ 1421 هـ .
- الشوكاني (محمد بن علي) : أدب الطلب ومنتهى الأرب تحقيق يوسف بديوي وحسن سويدان دار اليمامة دمشق - بيروت ط¹ 1421 هـ 2000 م .
- الطبري (محمد بن جرير) : تاريخ الأمم والملوك دار الكتب العلمية بيروت ط² 1408 هـ 1988 م .
- ابن عبد البر (يوسف بن عبد الله) : الاستنكار ج2 تحقيق عبد المعطي أمين قلعي دار قتيبة دمشق - بيروت دار الوعي حلب - القاهرة ط¹ 1413 هـ 1993 م .
- ابن عبد السلام (عبد العزيز) : قواعد الأحكام في مصالح الأنام دار الكتب العلمية - بيروت .
- عبد الكريم عثمان : معالم الثقافة الإسلامية مؤسسة الرسالة بيروت مكتبة النور طرابلس - ليبيا ط² 1392 هـ 1972 م .
- ابن عسكر (محمد) : دوحة الناشر تحقيق محمد حجي دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر الرباط 1397 هـ 1977 م .
- عوامة (محمد) : صفحات في أدب الرأي دار القبلة للثقافة الإسلامية جدة ومؤسسة علوم القرآن دمشق ط¹ 1412 هـ 1991 م .
- عياض : ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك تحقيق جماعة من الأساتذة طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب ج^{1,2} بتحقيق محمد بن تاويت الطنجي ط² 1403 هـ 1983 م . وج³ خال من معلومات الطبع .
- الغزالي (محمد) : دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين دار الوفاء المنصورة - مصر ط² 1408 هـ 1988 م .
- ابن فارس (أبو الحسين أحمد) : معجم مقاييس اللغة تحقيق عبد السلام هارون دار الجيل بيروت .

- أبوفارس (حمزة) : البدع وموقف الإمام الشاطبي منها مجلة الموافقات المعهد العالي لأصول الدين بالجزائر العدد الأول 1992 م .
- الفوتي (عمر بن سعيد) : رماح حزب الرحيم (بهامش جواهر المعاني) مكتبة الكليات الأزهرية 1397 هـ 1977 م .
- القرشي (أبو زيد محمد بن أبي الخطاب) : جمهرة أشعار العرب دار صادر ودار بيروت بيروت 1383 هـ 1967 م .
- ابن القيم (محمد بن قيم الجوزية) : إعلام الموقعين تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد بدون تاريخ ومكان الطبع .
- مالك بن أنس : الموطأ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي دار إحياء التراث العربي بيروت 1406 هـ 1985 م .
- الماوردي (أبو الحسن علي بن محمد) أدب الدنيا والدين تحقيق مصطفى السقا المكتبة الثقافية بيروت ط³ تصوير طبعة مصطفى الحلبي بالقاهرة 1407 هـ 1986 م .
- ابن منظور لسان العرب تحقيق جماعة من الأساتذة دار المعارف بمصر .
- ابن نجيم (الزين) الأشباه والنظائر تحقيق عبد العزيز الوكيل مؤسسة الحلبي - القاهرة 1387 هـ 1968 م .
- واصل (نصر فريد) : التفجيرات والتهديدات التي تواجه الأمنين بحث مقدم للدورة 17 للمجمع الفقهي الإسلامي المنعقد بمكة المكرمة 19 - 24 / 10 / 1424 هـ 13 - 18 / 12 / 2003 م .